

من أجل نظريتي في إنتاج الفكرية

بقلم الدكتور جعفر بن عيسى

من ان يطالع بكثرة ، اذا شاء ان يكون من ابناء عصره ، والا ، فانه الركب .. ولكن المطالعة وحدها لا تكفي ، بل لا بد من ان يستفيد الانسان مما يطالع ، وان يضع في حسابه بان الجهود المصروفة في المطالعة ينبغي ان يقابلها مردود معين . ولهذا ، فان القراءة موضوع لا يهم رجال التربية والتعليم وحدهم ، بل يهم كذلك الكاتب السني سوف يؤول به الامر الى اليأس والقنوط اذا لم يصادف من القراء حدا أدنى من الاقبال ... ويهم أيضا الناشر الذي لا بد من ان يدخل في حسابه ميول القراء ، واحتياجات البلاد ، وان يفكر في ازدهار مؤسسته وفي الحصول على قسط قليل او كثير من الربح ... ويهم كذلك مديري الشركات العامة والخاصة ، ورؤساء المصالح في الإدارات والمؤسسات ، لان هؤلاء جميعا يعلمون ان الشمع ان الذي نادت به التربية الاسلامية وهو « اطلب العلم من المهد الى اللحد » ، هو اساس الازدهار ، وان ما يسمى اليوم في التربية الحديثة بالتربية المستمرة L'éducation permanente هو عماد المعاصرة وركيزة التقدم في هذه الحياة .

٢ - تصحيح بعض المفاهيم .

واذا كانت المطالعة بمثل هذه الاهمية لتقدم البلاد ، فانه يجدر بنا ان نصح بعض المفاهيم التي لا تزال سائدة عندنا ، وبعض الافكار الخاطئة التي تزيف الثقافة وتسمها بميسم السطحية والنفاهة . ويبدو لي ان هنالك خلطا بين ما يسميه البعض بالخلق والابداع ، وبين ما نسميه نحن بالانتاج الفكري .

وللاسف الشديد ما تزال الثقافة في بلادنا قائمة من حيث المنطلق ، على افكار غيبية وعلى معتقدات خرافية لا اساس لها من الصحة . فلا يزال الاديب مثلا يستعمل عبارات توقع في الالتباس ، كالوحي ، والالهام والخلق والابداع ، وهي عبارات توهم القارئ ان الاديب من طينة اخرى غير طينة البشر ، وانه يشرف على هذا العالم الفاني من عيانه ، ويطل على عالم آخر هو عالم الابدية .

ولعل هذا الامر هو الذي دعا بعض الناس الى تشبيهه الابداء ، وخاصة منهم الشعراء ، بالانبياء . وهذا ما نستشفه من قول احدهم في رثاء ابي الطيب :

هو في شعره نبي ولكن ظهرت معجزاته في المعاني
ولقد يقول البعض : لماذا تحفرنا من ادعاء النبوة في عصرنا ، ونحن نعلم ان سيدنا محمدا هو خاتم الانبياء ؟ فالى هؤلاء اقول بان ادعاء النبوة في عصرنا ، وان لم يكن صريحا ، الا انه يتخذ في مجال

ان الثورة التقنية Technologique التي هي اهم مميزات النصف الثاني من القرن العشرين ، تستلزم من الاديب العربي ان يعيد النظر في العديد من المفاهيم الراسخة في الازمان ، وان يؤمن بان التقنية التي نريدها للعالم العربي هي التي توفق بين الانسان الفكر Homo - Sapiens والانسان العامل المنتج Homo - Faber ويطلب لي ان استشهد ببنت لابي الطيب المنهبي ربما يلخص الفكرة التي اعتمد عليها صاحب هذا المقال :

اعز مكان في الدنيا سرج سابع وخير جليس في الحياة كتاب
وهي لعمرى صورة رائعة لا يقوى على تصويرها الا فنان مقتدر ، وشاعر كبير من طراز المنهبي : تلك هي صورة الفارس الذي يقطع الفيافي والقفار على صهوة جواده الاصيل ، وصورة الفارس المنصرف الى كتابه ، لا يلتفت الى شيء سواه . فالجواد في هذا البيت رمز للزحف والفتح والعمل .. اما الكتاب فهو رمز للفكر الذي يبذل الظلمات .

ان العرب والمسلمين لم يرتفع لهم شأن الا عندما حققوا الانسجام بين الفكر والعمل . وكان ذلك منذ اربعة عشر قرنا ، عندما نزلت الآية الكريمة التي تقول : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » . والعبارة التي نستخلصها من هذه الآيات ، ان استعمال القلم اساس الحضارة ، وان جميع اهم الارض لن يرتفع لها شأن الا اذا انتقلت من مرحلة الرواية الى مرحلة التسجيل ، واتخذت الكتاب سلما للازدهار والرفي .

١ - المطالعة في المجتمع الحديث .

ظلت المسائل المتعلقة بالقراءة مدة طويلة من الزمان ، من اختصاص رجال التربية وحدهم ، لا ينازعهم فيها منازع . فهم الذين ما فتئوا ، سواء في الكتابات ، او في الزوايا ، او في المدارس الحديثة ، يعلمون الاطفال كيف يهجون الحروف وكيف يقرأون .. الا ان الاهتمام بمشكلة القراءة لم يعد في السنوات الاخيرة محصورا في نطاق المدرسة ، بعدما أصبحت المطالعة عنصرا فعالا من عناصر التقدم العلمي ، وسلاحا من اسلحة الثورة الثقافية ، واداة لا يمكن الاستغناء عنها للنهوض من كبوة التخلف ، والالحاق بركب الانسانية .

ومن جهة اخرى ، فان المطالعة ارتبطت اليوم بمفهوم المردود ، وبذلك اندرجت في اطار التنمية الاقتصادية للبلاد . فالانسان لا بد

الفكر طرائق قد لا يفتن لها الفالون . والامثلة على ذلك كثيرة ، منها عبادة الاشخاص ، والطرقية ، والتحيز للاراء والمذاهب من غير تمحيص . وقد اصبحنا نصادف في كل مكان ما يدعو الى هذا المذهب او ذاك ، وعبادة هذا الصنم او ذاك من اصنام الثقافة ، واتباع من يسمونهم اعلام الفكر ، وليس في وطاب بعض اولئك الاعلام سوى الزيف والتضليل .

٣ - الاديب مظنة للسوء .

وهكذا فان تعاطي صناعة الادب والفكر مظنة للسوء ، لانها تتعلق بمجال خطير من مجالات الحياة ، وهو : وضع الانسان في الحاضر ، ومصيره في المستقبل . ولذلك فان الاديب قد تخول له نفسه ان يتشبه بالانبياء ، وان يدعي بان له صلة بالغيب ، وانه يدرك ببصيرته ما لا يدركه الناس بأبصارهم .

ولا ينبغي ان ننسى ان الكلمة في نظر الناس مقدسة ، ولها اصل الهي ، فلا عجب ان ينسبوا اليها قوة لا تعدلها قوة ، وهي قوة السحر . وتعتقد العامة ان بعض الكلمات يمكن ان تؤثر في قسوى الغيب ، فاذا ما نطق بها الانسان ، او كتبها ، او وضعها في حرز ، فانها قد تشفي المريض ، او تحفظ من الشر ، او تيسر السبل ، او تزيد المحبة او تحدث الكراهية .

وبما ان الاديب يتعامل بالكلمة ، فانه مظنة للسوء ، لان تلك الكلمة سلاح رهيب يمكن ان يكشف به عن امور قد تضر ابناء قومه او تنفعهم . ولذلك فهو معرض لان تنزلق به التقدم في دروب الفكر المتوتية ، فيتاجر بالكلمة ، ويصبح مشعوذا كسائر الرقاة او كتبة الحروز .

وقد حذر القرآن من هذا الموقف :

« وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا ، شياطين الانس والجن ، يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، ففرهم وما يفترون » (١) .

ما الفرق اذن بين من يدجل على الناس بالحروز ، ومن يفتري على الناس بالقول المزخرف والكلام المنمق ؟ . وهكذا نرى ان تسخير القلم في الافتراء وتزييف الحقائق لا يقل مضرة عن كتابة الحروز ، وان الشعوذة وادعاء النبوة لا تختص بهما الشعوب البدائية ، بل هي ظاهرة ملحوظة في الشعوب المتقدمة ايضا . واذهب الى ابعد من هذا فاقول بان التدجيل في مجال الفكر يشكل اليوم خطرا جسيما على مستقبل الثقافة . ولذلك قال الله تعالى في حق هؤلاء المشعوذين :

« والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر انهم في كل واد يهيومن . وانهم يقولون ما لا يفعلون . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » (٢) . ان الاديب الذي نريده اذن هو شخص عادي ، لا يوحى اليه ، ولا يعلم الغيب ، وليس بملك من الملائكة على أية حال . حتى ولو كانت له في ميادين الفصاحة والبيان ، سنحات ترفعه الى منزلة العظماء .

انه شخص لا يكتفي بتنميق الكلمات ، ووصف العبارات ، بل يعمل « الصالحات » على حد تعبير الآية ، اي يشارك في بناء الوطن ، وينتج كما ينتج غيره من ابناء قومه .

٤ - نظرية في الانتاج الفكري .

ان ازدهار الثقافة في بلدنا مرهون بوضع نظرية في الانتاج الفكري ، متجردة من الاعتقادات الفيبسية الباطلة ، ومن الخرافات

(١) سورة الانعام - الآية ١١٢ .

(٢) سورة الشعراء - الآيات ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٢٧ .

والاوهام التي علفت بالاذهان طوال عهود الانحطاط . وقد يكون من المفيد في هذا المقام ان نلتفت الى ماضينا المجيد ، لكي نستخلص منه بعض الآراء المفيدة لوضع نظرية سليمة في الانتاج الفكري . فقد بين الاسلام ان الاسماء التي هي أدوات الانتاج الفكري انما هي توفيق من عند الله ، وليست ملكا لاحد من الناس . وخير من يمثل هذه النظرية من القدامى ، ابن فارس (توفي عام ٢٩٥ هـ - ١٠٠٤ م) ، اذ يقول : « ان لفة العرب توقيف » (٣) . ولقد يتوهم أحنا ، اذ يجمع الكلمات بعضها مع بعض ، ويرصفها في جمل ، وينظمها في فقرات ، انه يقوم بعملية خلق وابداع . فما أضل مسعاه ! لان المسميات انما هي مخلوقات من عند الله ، وبالتالي ، فان الاسماء هي ايضا مخلوقات من عند الله . ومن ذلك قوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها » .

ان الاديب لا يبدع شيئا في عمله ، ولا يقوم بالخلق . والدليل على ذلك ان المادة التي يعتمد عليها ، وهي اللفة ، باسمائها وفعالها وحروفها ، وبما تحتوي عليه من فكر وتراث حافل بالقصص والاساطير والقصائد ، تلك اللفة موجودة قبل ان يوجد ، وقبل قيامه بمشروع الكتابة . فكيف يصح حينئذ ان نقول بانه خلاق مبدع ؟ وانما الخلق هو الابداع من العدم . والاديب لا ينطلق في عمله من نقطة الصفر ، لانه يعتمد دائما على ما خلفه الاولون من تراث . ويضيف الى ذلك التراث شيئا نسميه خلقا ولا ابداعا ، وانما هو انتاج من نوع خاص ، نسميه الانتاج الفكري .

واذا ارتضينا لانفسنا نظرية الانتاج هذه ، واطرحنا نهائيا عبارات الوحي والالهام والخلق والابداع وما يختبئ وراءها من مفالطات فادحة ، فاننا نستطيع حينئذ ان نعالج مشكلة الركود الثقافي بشيء من التفاؤل . وهذه النظرية تكاد تكون فيما اعتقد من البديهيات : فاكثر الناس يسلمون بان خيرات الارض والثروات الطبيعية انما هي من نعم الله على عباده ، وليس لهؤلاء اي دخل في خلقها . فلماذا لا نفترض كذلك ان اللفة من نعم الله على عباده ، وليس لاي واحد منهم ، مهما اوتي من الفصاحة والبيان ، اي نصيب في الخلق والابداع ، لان الله هو الذي « علم آدم الاسماء كلها » . فاذا كتب الانسان او ألف ، فانه لا يبدع ولا يأتي بما لم تات به الاوائل ، على حد تعبير المعري (٤) ، بل يعتمد على ما خلفه الاولون من تراث حافل بالقصص والاساطير والقصائد والملاحم وما الى ذلك من فنون البيان (٥) .

٥ - اللفة اداة انتاج .

ان اللفة بهذا الاعتبار ، ملك مشاع بين جميع افراد المجتمع ، لانها ، كبقية الثروات الطبيعية ، من نعم الله ، فلا يجوز ان يختص بها قوم دون قوم . وبما ان الثروات الطبيعية مسخرة للانسان ليستثمرها وينتفع بها ويزيد من دخلها عن طريق العمل المنتج ، فكذلك اللفة مسخرة للانسان ليتوصل بها الى قضاء مآربه المادية والمعنوية في هذه الحياة . فاللفة اذن انما هي اداة انتاج ، كسائر الادوات المستعملة في الزراعة والصناعة والتجارة . والانسان اذ يكتب بها أو يؤلف ، انما هو منتج كسائر العمال الآخرين المنتجين .

(٣) ابن فارس « الصحاح في فقه اللغة العربية » ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٣١ .

(٤) اشارة الى قول أبي العلاء المعري :

واني ، وان كنت الاخير زمانه لات بما لم تستطع الاوائل

(٥) انظر في هذا الموضوع :

Pierre Macherey : « Pour une théorie de la Production littéraire » Maspero. Paris 1970P. 222 et 223

المروقة لدى أحد الأمراء ، وتارة يطرد شر طردة من مجلس أحد الأعيان ، وتارة تحدد له نسبة مئوية يتقاضى بموجبها ربحاً سيرا .
والادهي من كل هذا ان الاديب لا يستطيع ان يستهلك بضاعته التي أنتجها . « فالاسكافي قد ينتفع من الاحذية التي صنعها ، اذا كانت من قياسه ، والمهندس المعماري قد يسكن في السدار التي بناها . » (٧) اما الاديب ، فليس له بعد الانتاج الا الصبر والانتظار ، لان قصيدته او قصته تظل كل منهما في حكم العدم ، اذا بقيت حبرا على ورق ، وسطورا سوداء . ان انتاج الاديب في حاجة الى عملية لاحقة تخرجه من حيز العدم الى حيز الوجود ، وهذه العملية تسمى القراءة .

٧ - الانتاج الفكري لا يقيّم بثن .

والحقيقة ان الانتاج الفكري لا يمكن تقيّمه بثن ، لان العناصر المركبة له قد لا تظهر قيمتها الا بعد مرور اجيال ، فلا بد من دراسة الانتاج وتمحيصه واعادة النظر فيه المرة تلو المرة ، واثناء ذلك كله يكون الاديب قد فات ومات واصبح نسيا منسيا . ولذلك فان قيمة انتاجه عندما تحدها دار النشر ، لا يمكن ان تكون الا اعتبارية وتقريبية . كيف السبيل مثلا الى تحديد عوامل الندرة والابتكار والسبق ؟ « ان الاثر الفكري اسمى من ان يكون بضاعة مادية » (٨) . فمواد الاستهلاك مثلا يمكن ان يستعان في صناعتها بالالات الحديثة التي توفر على العامل كثيرا من الجهود . اما الاديب فلا يزال الى حد اليوم يعتمد في توليده للمعاني ومعانيه للخبرة الفكرية على نفس الاساليب المفضية التي درج عليها الاوان . والانتاج الصناعي ينسج على منوال واحد ، فكل نسخة ، وكل بضاعة ، شبيهة باختها من غير زيادة ولا نقصان . اما في الانتاج الفكري ، فان الفكرة تبعث دائما في ثوب قشيب ، وتظهر بوجه جديد . وكل فكرة فريدة فسي نوعها . فمن يا ترى يستطيع ان يقدر هذه الامور كلها حق قدرها ؟

ان الاديب في كل هذه الحالات مهضوم الحقوق ، لانه يعلم ان انتاجه سوف يصبح بعد نصف قرن ملكا مشاعا ، وسوف يصير نهبا لدور النشر تستقله كيفما تشاء من غير حسيب ولا رقيب ، بدعوى انه صار من التراث الانساني . وكمن ادب لم يعرف طوال حياته سوى البؤس والشقاء ، حتى اذا مات ، تحولت بضاعته الكاسدة في حياته ، الى كنز لا يقنى بالنسبة الى من يلبس مسوح الثقافة ويدعي انه نذر نفسه لخدمتها وان همه الوحيد هو احياء التراث ! بطبيعة الحال ، قد تجد من الادباء من يعزى نفسه ، معتقدا انه يكتب للمستقبل لا للحاضر ، وان الاجيال اللاحقة سوف تعرف قدره وتمجد ذكره ، فينسيه ذلك ما يلاقه من حرمان ، ويصادفه من اعراض على يد ابناء قومه المعاصرين له . . ولكن هذا العزاء للاسف الشديد لا يسمن ولا يقني من جوع .

٨ - هل يعيش الاديب على حساب المجتمع ؟

ما من شك اذن ان نشاط الاديب لا يفيد المجتمع في القريب العاجل ، وان بضاعته لا تستهلك في الحين وان نفعه قد لا يظهر الا على المدى البعيد . ولكن ، ايصح بعد هذا ، ان نقول بان الاديب يعيش على حساب المجتمع ، وانه ليس من العمال المنتجين ؟

(٧) انظر في هذا الموضوع :

J. P. Sartre : « Qu'est-ce-que la littérature ? »
Gallimard - Paris 1948, P. 52 et 53.

(٨) راجع مقال الاستاذ مصطفى الفارسي بعنوان « البلاد العربية وحقائق التأليف » في مجلة « الاداب » بيروت ، العدد الاول ١٩٧٢ ، كذلك في مجلة الفكر ، تونس ، العدد الرابع ، جانفي (تموز) ١٩٧٢ .

وإذا كانت اللغة أداة انتاج ، وجب الا يختكرها قوم يدعون بانهم سدنتها وحماتها . فلكم راينا هؤلاء يقفون بالرصد لكل من ينسادي بالتجديد ، ويثور على الاساليب العتيقة التي اكل عليها الدهر وشرب! بل قد تجد منهم من لا يتردد في رمي هؤلاء « الخارجين عن القانون » بالكفر والمروق . ومتى وصلت المسألة الى هذا الحد ، فان الانتاج يضمف ، ويميدان الادب يقفر خوفا من هذه الفئة المحتكرة التي تدعي ان البيان ذهب ، وان اللسان العربي فسد ، وان الاجبر بالادباء ان يلزموا الصمت لركاكة أسلوبهم وضعف لغتهم واختلال تفكيرهم .

وقد حصل الاحتكار في عهد الاستعمار ، عندما استأثرت الخاصة بالثقافة والعلم ، وبقيت العامة من الناس تتخبط في ظلمات الجهل . فالامية لا تزال - رغم الاشواط البعيدة التي قطعها الاقطار العربية في مضمار التقدم - لا تزال على رأس المشكلات . ومن البديهي ان انتشار امية ينجم عنه هزال المطبوع من الكتاب ، لقلّة القراء . ومن المؤسف حقا ان تعاني الامة العربية التي تاتي في المرتبة الثامنة من حيث تعداد السكان في العالم ، من المؤسف ان تعاني أزمة قراء (٦) .

ولا يخفى على أحد ان هزال كمية المطبوع يؤدي الى ارتفاع كلفة الانتاج ، وبالتالي الى غلاء الكتاب العربي ، مما يزهّد القارئ في شرائه . غير ان الامر لا يقف عند هذا الحد ، لان انصراف الكتاب عن التأليف ، والقارئ عن المطالعة ، يؤدي الى نتيجة خطيرة ينبغي ان نحسب لها ألف حساب . وذلك ان رصيد الامة من الافكار يؤول به الامر الى فقر مدقع ، اذ المفروض في هذا الرصيد ان يتجدد في كل جيل حتى لا ينفد . واذا كانت البول تشعر بالقلق حين ينفد رصيدها من الذهب في البنوك ، فما أجبرها ان تعلن حالة الطوارئ حين ينضب معينها من الافكار !

٦ - بين الانتاج الصناعي والانتاج الفكري .

ان الاديب الذي نريده اذن هو الاديب المنتج . ولكن المشكلة ان الاديب كان - ولا يزال - محترقا ومستضعفا ، لان الناس يظنون بانه لا ينتج . ونستعمل كلمة الانتاج هنا بالمعنى المتعارف عليها لدى العامة من الناس . فقد درج المجتمع على ان لا يقيم وزنا لما هو ناتج عن الجهد العضلي . اما الانتاج الفكري فليس فيه كد ولا تعب ، ولا عرق جبين ، لان صاحبه قد يظل في بيته مكتفا ، فلا يدري احد كم جاهد الفكرة المتأبية ، وكمن تحايل على المعنى الشroud ، وكمن سهر الليالي حتى اشرق في ذهنه الحل المستعصي . فهو اذن انسان لا يستطيع ان يقوم باود عيشه ، بل يعيش في كنف غيره ، كما كان الامر في عهد الملوك والأمراء ، وكما هو الشأن اليوم في المجتمعات البورجوازية التي لها ادباء يعيشون في ظلها وتحت رحمتها . المشكلة اذن بالنسبة الى الكاتب انه انسان يستهلك منتوجات الحضارة المادية ، ولكنه لا ينتج شيئا ينتفع منه المجتمع في الحين ويسد به الحاجة العاجلة . وحتى لو فرضنا انه وضع قلمه تحت تصرف ابناء قومه ، فسوف ينظر المجتمع اليه دائما بشيء من الاحتقار احيانا ، وبشيء من الشفقة احيانا اخرى . وبما ان انتاجه لا يخضع لتقلبات السوق ، خلافا لغيره من مواد الاستهلاك ، ولا يخضع ايضا لقانون العرض والطلب ، كما هو الشأن بالنسبة الى المنتوجات الاخرى ، فان بضاعته بضاعة مزجة ، وقيمتها تابعة لهوى المصادفة ، فتارة ينال الحظوة

(٦) جاء في كتاب نشرته اليونيسكو ان عدد السكان في العالم العربي يبلغ ١١٧،٢٧١،٠٠٠ عام ١٩٦٨ ، وان عدد المنخرطين في المدارس والمعاهد يبلغ ١٤،٣٩٦،٠٠٠ منهم ٤،٨٨٣،٠٠٠ من البنات . راجع :
Apprendre à etre . -
UNESCO Fayard 1972 pp. 315 - 317 et 320.

باعتراله الكتابة والتأليف . اما المنصب الذي صار يحتله في ميدان التعليم والادارة ، فما اكثر المترشحين له !

على ان الكاتب الذي « يتسرب » الى الادارة او التعليم ، تغل نفسه مع ذلك عالقة بنينا الادب والفكر ، لان الانسان مهما تغلبت به الاحوال ، لا يستطيع ان يتخلص من وشائج الحب الاول . ومنى عاوده الشوق الى « بنات فكره » كما يقول العرب ، فانه لا يستطيع ان يغالب الشوق . ولذلك فانه قد يطالعا بين الحين والآخر بقصيدة او بقصة قصيرة ، او بمسرحية تنلمس فيها بصيصا من موهبة اصيلة ، واشراقة من عبقرية مدفونة بين جدران الكتب . والحقيقة ان الذين نذروا انفسهم للكتابة وحدها في العالم العربي نادرون ، ولذلك فان اكثرهم يتعاطى مهنة ما ، وينتج بين الحين والآخر ما تجود به القريحة .

وليس لهذه الطريقة من عيب سوى ان الانتاج قد لا يكون له من الرصانة والاتقان ما يتوفر مثله عندما يتفرغ الكاتب تماما لهذا النوع من النشاط الفكري . ومن هنا الضعف في الانتاج ، والسطحية في البحث ، وعدم الاستمرار في الجهد ، والتواني في العمل .

وهكذا نجد ان التسرب في مجال الانتاج الفكري يتخذ اربعم صور :

اولا : التسرب الجزئي . وهذا ما نجده عند من يحاول الجمع بين الوظيفة والانتاج الفكري ، فيعيش مشتت اللهن ، موزع الامكانيات ، لا يفيد ولا يستفيد .

ثانيا : التسرب الكلي . ونجده عند من يتغلى نهائيا عن الانتاج الفكري ، ويبحث عن عمل آخر يقوم باود العيش ، فلا يملك الا ان يقول ما قاله الشاعر متلما من بني قومه الذين جهلوا قدره :

اضاعوني ، وأي فتى اضاعوا ليوم كرهبة وسداد نفر

ثانيا : التسرب الكلي . ونجده عند من تتغلى نهائيا عن الانتاج قسم كبير منه يكتب في بلادنا باللغة الاجنبية ، ولهذا فهو معرض للضياع بالنسبة الى حضارتنا ، وللتسرب الى الحضارات الاخرى . والحقيقة ان الانتاج الفكري لا يندرج في اطار الحضارة الا اذا صيغ بلغة البلاد . فهل يعقل ان نترك نتاج عقولنا ، على ندرته ، بفلت من ايدينا ، فنفني الثقافات الاجنبية بجهود ابائنا ، ونحرم ثقافتنا القومية من كنوز ثمينة ؟ ويمكن تصحيح هذا الوضع اما بالتعريب المعجل او بتقوية جهاز الترجمة .

رابعا : التسرب عن طريق ما يعرف بتهرب العقول والامخاخ ، او هجرة الكفاءات ، وذلك ان التعاون في المجال الفكري بين الدول ، وتكوين الاطارات في الخارج ، رغم النتائج الايجابية التي اسفر عنها ، الا انها يخلوان من جوانب سلبية . ولكي ندرك العواقب الوخيمة المترتبة على هجرة الامخاخ ، استشهد بالمثل الاتي : « لقد تيسن بالحسابات ان تكوين المهندس الحاصل على الدبلوم يكلف الدواصة في بريطانيا ٦٠٠٠ جنيه استرليني . فاذا هاجر ، فان الخسارة التي تصيب الاقتصاد البريطاني يمكن تقديرها بثلاثين الف جنيه استرليني ، وهي القيمة الحقيقية لكفاءته المستثمرة في مجال العمل . اما قيمة كفاءته بالنسبة الى الاقتصاد الاميركي الذي سوف يستفيد من خبرته ،

كلا ! لان الكتابة في حد ذاتها تعتبر عملا ، بل تعتبر دعوة الى العمل النافع للمجتمع . ان عمل الاديبي يبدأ حين يشعر بان لديه كلمة تستحق ان تقال وان تنقل الى الغير مهما كلفه ذلك من تضحية . وهو اذ يتصدى لعمله ، يتخذ مسؤولية عظمى تجاه ابناء قومه وتجاه الاجيال اللاحقة : انه يتعهد بالكشف عن اوقاف كما يشاهده ، بقصد تغيير ذلك الواقع ، وتجاوز الحاضر لبناء المستقبل . وهو لا يكتفي بالوصف وتسمية الاشياء باسمائها ، بل يعمل فكره في شؤون الحياة ، ويحلل ويقارن ويدعو بني قومه ، ولو عن طريق التورية والكناية ، الى الحوار والنقاش والاصلاح والتغيير .

٩ - انقطاع الصلة بين الكاتب والقارىء .

ان مشكلة المشاكل ان القراء اصبحوا اليوم مشغولين عن مطالعة ما ينتجه الكاتب . فالبعض منهم يقضي وقته في محو الامية عن نفسه وعن ذويه ممن حرمهم الاستعمار من نور العلم . والبعض الآخر منصرف لتدارك ما فات ، وملء الثغرات المنقطعة التي لم تتواصل على متوال واحد في زمن الاحتلال ... والبعض الآخر تراه مكبا على وجهه ليل نهار ، يحاول ان يستوعب ما يجد في عالم الابتكار من معلومات قد تفيده في مهنته او في ميدان تخصصه . وحتى متخرجي الكليات ينقطع اكثرهم عن المطالعة بعد نيلهم الشهادة الجامعية . اضعف الى ذلك كله ان الحياة اصبحت شديدة التعقد في كبريات المدن ، وان الفرد يجد نفسه مرهقا بالعمل المل ، والمواصلات المتعبة ، والضجيج المهلك ، والجو الملوث بالدخان ، فاذا وصل الى بيته مكنودا ، فان مشاهدة التلفزة او الاستماع الى الاذاعة ، او قراءة الصحيفة ، ادمى الى الراحة ، واقل اجهادا للنفس من مطالعة الكتاب .

ان انقطاع الصلة بين الاديبي والقارىء ظاهرة خطيرة لا بد ان يحسب لها حساب ، فلقد آتبع لي عشرات المرات ان اسأل المترشحين للدخول الى المهاد العليا عن مطالعاتهم ، والجواب الذي اسمعه في اكثر الاحيان ممن يشتغل منهم موظفا ان عمله المهق لا يسمح له بالمطالعة ، وانه بالنالي لا يتذكر عنوان أي كتاب طالعه في الاعوام الاخيرة . اما الطلبة ، فجوابه ان البرامج الدراسية تستغرق كل وقتهم ، فلا مجال للتفكير في المطالعة ، واذا صادف ان احدهم قد تصفح كتابا ، فانه قلما يتذكر اسم المؤلف . ويخيل الي ان المؤلف اصبح بالنسبة الى جمهور القراء شيئا ثانويا ، وان الاهم ليس هو المنتج بل الانتاج ، فلا حاجة اذن لتذكر اسم المؤلف . ومما يدل على ان الكاتب اصبح في المرتبة الثانية ، ان جمهور المتفرجين في قاعة السينما يهتم اولا بمعرفة اسماء الابطال ، واسم المخرج ، ولكنه قلما يلتفت الى اسم واضع القصة (٩) .

١ - التسرب في مجال الانتاج الفكري .

على ان انقطاع الصلة بين الكاتب والقارىء قد تترتب عليه نتيجة تشكل خطرا جسيما على مستقبل الثقافة ، وتعني بذلك ما يسميه البعض بالتسرب Déperdition في مجال الانتاج الفكري . والمقصود بالتسرب هنا هو انصراف الكاتب عن الانتاج ، على فراد تسرب التلميذ من المدرسة وانفصاله عنها وضياع الجهود والاموال التي بذلتها الدولة في سبيل تعليمه . ولا شك ان انصراف الكاتب عن الانتاج يعتبر خسارة عظمى حتى ولو استخدمته الدولة في مجال آخر ، كالتعليم او الادارة ، لان مكانه في عالم الفكر والثقافة سيظل شاغرا

(٩) راجع في هذا الموضوع :

J. P. SARTRE : Qu'est-ce que la littérature ?

op . cité , P. 294 .

فتقدر بثمانية وسبعين الفا من الاجنبيات الاسترلينية « (10) .
ومن حسن الحظ ان هذه المشكلة قائمة في بعض البلدان الصناعية،
ولم تتخذ الى حد اليوم شكلا خطيرا في الاقطار النامية .

الفن لا يمكن ان يجذب « (11) .

وبعد

فان تحديثات العصر ، ومقتضيات الثورة التكنولوجية المدهشة التي
يشهدها القرن العشرون ، تفرض علينا اليوم ان نغنى عناية خاصة
بالجانب الفكري ، وان نقيمه على أسس سليمة ، وان نحقق التوازن
بينه وبين الجوانب الاخرى التي حظيت الى حد اليوم باهتمام
المسؤولين . وما دامت الفلسفة التي خلفها لنا السلف الصالح هي
« فلسفة العمل » ، فانه يتحتم علينا اليوم ان نحقق الانسجام بين
الفكر والعمل ، وان يكون المعيار الوحيد للموازنة بينهما وتقديم
احدهما على الآخر ، هو المرود والانتاج . وبذلك يتعاون رجال الفكر
والفلاحون والعمال والتقنيون وذوو المهن الحرة ، في تشييد صرح
هذه الامة .

حنفي بن عيسى

الجزائر

وتفاديا لهذه الامور كلها ، فمن حق كل من يعمل في مجال الفكر
ان يطالب الدولة بتحديد وضعيته تحديدا واضحا ، واعتباره عاملا
منتجا كغيره من العمال الذين يساهمون في تشييد البلاد . ولكن ،
من حق الدولة ان تطالبه من جهتها بآداء عمله والاخلاص لهنته وخدمة
الثقافة والعلم بكل نزاهة .

ويقول الدكتور احمد طالب الابراهيمى ، وزير الاعلام والثقافة

بالجزائر ، بخصوص هذه النقطة :

« هناك شرطان اساسيان للخروج من الركود الثقافي ، وهما :
التشجيع من طرف الدولة ، وايمان الاديب او الفنان بمبادئ الثورة .
وإذا توفر الايمان ، فان روضة الادب لا يمكن ان تقفر ، وان ميدان

(11) انظر مقال الدكتور احمد طالب الابراهيمى : « التجربة
الجزائرية في الثورة الثقافية » مجلة الثقافة - الجزائر ،
السنة ٢ ، العدد ٨ - ٩ .

(10) راجع في هذا الموضوع كتاب :

Voir : « Apprendre à être » op cité p; p 277

دار الآداب تقدم

ماريو بوزو

رواية

العَرَابُ

رولاند

« العَرَابُ » The Godfather هو الرواية التي سجلت منذ صدورها في السنة الماضية اكبر رقم في
التوزيع عرفته اية رواية عالمية حتى اليوم . فهي ما تزال تباع بالملايين في جميع انحاء العالم بعد ان ترجمت
الى معظم اللغات . وقد اقتبس منها حديثا فيلم ضخم يعرض الآن في كثير من دور السينما في العالم ويشهد
اقبالا فاق الاقبال على أشهر فيلمين عالميين هما « ذهب مع الريح » و « صوت الموسيقى » .
ولكن من يقرأ الرواية يلمس الفرق الكبير بينها وبين الفيلم الذي يمكن اعتباره صورة مشوهة عنها .
لان الرواية التي كتبها ماريو بوزو اجمل وأغنى بالاحداث وأعمق بالتحليل من الفيلم . وبالرغم من ان هذه الرواية
تشهد القاريء اليها وتتركه مذهولا ، فانها تعطي اصدق صورة لتحلل المجتمع الاميركي الذي يخضع ، حتى أعلى
مستوى فيه ، لنفوذ عصابات « المافيا » ، هذه العصابات التي يمثل دون كورليون « العراب » رأسا من
رؤوسها الخطيرة ويمثل اولاده فيها ادوار القتل والاجرام والجنس والوحشية ...
ان « العراب » ادانة للمجتمع الاميركي وللاجرام الراسمالي الذي يقوم عليه والذي يخلق هذه الطبقة من
« المافيا » ذات النفوذ الخطير الممتد الى النقابات ومجلس الشيوخ وسائر السلطات التي تشد خيوط
الحياة الاميركية .

وبراعة المؤلف تقوم على تصوير الجريمة تحت مظهر الاحترام والوقار . ووراء عنوان « العراب »
البريء ، يجد القاريء خمسمئة صفحة محشوة بالديناميت ...

الثمن ٨٥٠ ق . ل

صدر حديثا